

الوحدة العربية بين المنهجية العلمية والنزعة الرومانسية

عبد التواب مصطفى *

مقدمة

بين يدي المشهد العربي القائم، الذي يزداد غموضاً وتعقيداً وتراجعا بمضي الأيام وتعاقب الانكسارات.. نتساءل: ما جدوى الحديث عن "الوحدة العربية"؟ سواء من جانب بعض أعضاء الجماعة البحثية العلمية أم من جانب بعض النشطاء السياسيين الذين لا تخلو منهم مشاهد الانتفاضات و(الثورات) العربية الراهنة؟

هل يُعد هذا الحديث نوعاً من نشوة الماضي يرتاح اليه الوجدان العربي الحزين الآخذ في التردى الى غيابة اليأس يوماً بعد يوم؟ أم هو أحد الأحلام أو الرؤى الرومانسية؟ أم هو حديث عن حقيقة لا تتكشف قوتها وحضورها الكامن في الأمة إلا حين يضغط الخطر على الخناق، كما يلاحظ القارئ للتاريخ العربي منذ نورالدين وصلاح الدين وحتى عبد الناصر؟

أم كلما ألت بالأمة العربية بعض الانكسارات الداخلية، أو تهددتها بعض المخاطر الخارجية، تعود الروح القومية فتتحرك أبناء هذه الأمة أو بعضاً منهم، للبحث عن مخرج من هذه الملمات، أياً كان ذلك المخرج: رومانسياً أو براغماتياً.

إن ترديد هذه التساؤلات فيما مضى (**) واستمرار تكريرها حتى اليوم يؤكد استمرارية بقاء فكرة "الوحدة العربية" في الوجدان والضمير والعقل العربي، وهو كفيلاً بأن يدفعنا الى الخطوة التالية، ألا وهي دراسة مدى إمكانية الانتقال بهذه (الفكرة) الى حيز الواقع، مستفيدين بمعطيات كل من (المنهجية العلمية) و(النزعة الرومانسية) في هذا السبيل.

الذي لا يمكن تعطيله أو التناكر له - في هذا المسار - هو المنهج العلمي؛ لأنه يتعامل مع معطيات واقع الأمة التي يتعلق أبنائها بهذا الطموح القومي، والقادر على الإجابة عن سؤال: متى/ كيف تتحقق تلك الوحدة؟

أما الذي هو محل تعطيل أو استخفاف من جانب البعض، فهو المدخل (الرومانسي) الى الموضوع نفسه. فهل تعني النزعة الرومانسية أو ذلك التعلق العاطفي والوجداني

(*) استاذ العلوم
السياسية بكلية الإعلام
- الجامعة الحديفة -
القاهرة.

(**) انظر، مثلاً:

- د. مصطفى عبد الغني،
على هامش ندوة باريس...
الناصرية والقومية، الأهرام
(القاهرة)، ٢/١٠/٢٠٠٠.

- محمد حكمت، الوحدة بين
الممكن والمحال... قراءة في
التاريخ تعني المستقبل، في
٤/٢٠٠٠ على [http://](http://all4syria.info/newcd/files/c2.html)

بالطموح/الحلم القومي الوجودي العربي نوعاً من السراب أو الخيال الخالي من أية جدوى أو فائدة يمكن أن تُسهم في تحقيق هذا الطموح القومي الكبير؟

لقد كانت النزعة الرومانسية والتعلق العاطفي (مكوناً أساسياً في بنية الطموح القومي) لدى شعوب وأمم كثيرة استطاعت أن تنجز وحدة قومية متماسكة ناجحة. وإن لم تكن تلك النزعة العاطفية الرومانسية هي العامل الوحيد لإنجاز هذه الوحدة أو تلك، فقد كانت ضماناً أساسية لإنجاحها. فهل ينطبق ذلك على مسار "الوحدة العربية" المأمولة؟

يأتي في مقدمة أسباب إعداد هذه الدراسة محاولة اختبار مدى قدرة الإيمان بعقيدة (القومية العربية) على مواجهة موجات التأييس ومواجهة الاضطرابات أو الهزات العنيفة التي تتعرض لها الأمة العربية حالياً. وذلك من خلال الإجابة عن عدة تساؤلات بحثية. لعل أهمها: إلى أي مدى يمكن أن يضمن تكامل البناء الإيديولوجي لعقيدة (القومية العربية) بقاء (الفكرة) واكتمال (الحركة) لهذه العقيدة السياسية؟ وإلى أي مدى يمكن توظيف كل من (المنهجية العلمية) و(النزعة المثالية/الرومانسية) معاً في مغالبة هذه الانكسارات العارضة، لتطبيق أيديولوجية (القومية العربية)، وتحقيق الطموح الوجودي الذي يُعد شأننا ملازماً للأمة العربية - ككل الأمم - وإحدى ضمانات بقائها؟ وهل يحول التباين بين طبيعتهما - المنهجية العلمية والنزعة الرومانسية - دون توظيفهما معا في هذا المسعى؟ أم يمكن الجمع بينهما، وإلى أي مدى؟

ومن هنا تتضح أهمية هذه الدراسة وأهدافها.

تستخدم هذه الدراسة المنهجين التاليين:

١ - **المنهج الإيديولوجي:** فهو يركز على دراسة/تفسير تطور السياسة الدولية من منظور أيديولوجي معين، ويعتبر الوقائع التاريخية ميداناً لإثبات صحة أيديولوجية معينة. ووفق هذا المنهج، فإن نقطة البدء هي التسليم بوجود أيديولوجية معينة تتضمن رؤية لطبيعة التطور التاريخي، ثم يتم رصد تطور السياسة الدولية من منظور تلك الرؤية(١).

إلى ذلك، فمن المتصور أن يُعد التسليم بوجود أيديولوجية ما - هي هنا القومية العربية - دافعا للعمل على تطبيقها/ترجمتها إلى واقع ملموس، حاضراً ومستقبلاً، ولا يكون مجرد أداة لتحليل وقائع الماضي فحسب.

كما يتماس (المنهج الأيديولوجي) بقوة مع (التيار المثالي)(٢) في منهجية دراسة العلاقات الدولية؛ فإذا كان الأول يفترض أن نقطة البدء هي التسليم بأيديولوجية معينة تتضمن رؤية - غالباً مثالية - لطبيعة تطور السياسة الدولية، فإن الآخر يمدنا بالأفكار أو المثاليات الكبرى، التي توصف أحياناً بالرومانسية، للسعي إلى تحقيقها.

٢ - **المنهج المقارن:** يفيد هذا المنهج(٣) في التعريف بأبرز وجوه القوة ونقاط الضعف بكل من (المنهجية العلمية) و(النزعة الرومانسية) تمهيدا لمعالجة إشكالية الجمع بينهما في

(١) محمد السيد سليم،

تطور السياسة الدولية

(القاهرة: دار الفجر

الجديد للنشر والتوزيع،

٢٠٠٨)، ص ٥ - ٦.

(٢) أحمد يوسف أحمد

و: محمد زبارة، مقدمة في

العلاقات الدولية (القاهرة:

مكتبة الأنجلو المصرية،

١٩٨٩)، ص ٣٥ - ٦٦.

(٣) انظر:

- فاروق يوسف يوسف

أحمد، قواعد المنهج

العلمي: المناهج والاقترابات

والأدوات المنهجية

(القاهرة: مكتبة عين

شمس، ١٩٨٥)، ص ٣٩ -

٤٠.

- جارول مانهايم

وريتشارد ريتش، التحليل

السياسي الإمبريقي - طرق

البحث في العلوم

السياسية، ترجمة السيد

عبد المطلب غانم وآخرون

(الجزيرة، مصر: مركز

البحوث والدراسات

السياسية، ١٩٩٦)، ص

٤١٣ - ٤١٤.

- أحمد نوري النعيمي،

السياسة الخارجية (عمان،

الأردن: دار زهران للنشر

والتوزيع، ٢٠١١)، ص ١٢١ -

١٢٠ - ١٢١.

تطبيق (أيديولوجية القومية العربية) وتحقيق الوحدة المأمولة.

وفي مقدمة متطلبات المقارنة - منهجيا - يأتي الإطار النظري والمفاهيمي للدراسة^(٤).

خطة الدراسة:

أولاً - الإطار النظري والمفاهيمي.

ثانياً - توظيف المنهجية العلمية لتحقيق الوحدة العربية.

ثالثاً - دور النزعة الرومانسية في بلورة الطموح القومي.

رابعاً - إشكالية الجمع بين (المنهجية العلمية) و(النزعة الرومانسية) لتحقيق الوحدة العربية.

المبحث الأول

الإطار النظري والمفاهيمي للدراسة

يأتي هذا المبحث في محورين أساسيين:

أولاً - ظهور أيديولوجية (القومية العربية) وتطورها في التاريخ الحديث والمعاصر:

منذ فجر التاريخ، عرفت المنطقة العربية الظاهرة الوحدوية كأهم الظواهر السياسية، التي تتحول فيها المجتمعات المجزأة الى كيانات سياسية موحدة. فعرفت توحيد القطرين في مصر القديمة، وتوحيد الأراضي العراقية التاريخية. واستمرت هذه الظاهرة تترنح قوةً وضعفاً حتى تجسدت في التاريخ الحديث والمعاصر في تجارب وحدوية اندماجية وفيدرالية جزئية ناجحة، وإن كانت على أساس وطني. نذكر منها وحدة الدويلات السورية ١٩٣٠ ووحدة المناطق السعودية ١٩٣٢ ووحدة الولايات الليبية ١٩٦٣ ودولة الإمارات العربية المتحدة ١٩٧١ ووحدة شطري اليمن ١٩٩٠.

نذكر تجارب أخرى قامت على أساس قومي لكنها فشلت وتوارت، مثل الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسورية ١٩٥٨ والتي انضمت اليها المملكة اليمنية. والاتحاد العربي الهاشمي بين الأردن والعراق ١٩٥٨، والوحدة بين مصر وسوريا والعراق ١٩٦٣، ثم بين العراق ومصر ١٩٦٤، واتحاد الجمهوريات العربية بين مصر والسودان وليبيا ١٩٦٩، واتحاد الجمهوريات العربية بين مصر وسورية وليبيا ١٩٧١، والوحدة الاندماجية بين مصر وليبيا ١٩٧٠، والمملكة العربية المتحدة بين الأردن وفلسطين ١٩٧٢، والجمهورية العربية الإسلامية بين ليبيا وتونس ١٩٧٤، والوحدة الليبية الجزائرية ١٩٧٥، والوحدة السورية العراقية ١٩٧٨، والوحدة الاندماجية بين سوريا وليبيا ١٩٨٢، والاتحاد العربي الأفريقي بين ليبيا والمغرب ١٩٨٤. وهذه التجارب الفاشلة لاتزال موضوعاً للبحث والدراسة؛ التماساً لنقطة انطلاق لتجربة جديدة تستفيد من تصويبات مثالب التجارب السابقة، فتأتي - بإذن الله - أقوى وأشمل، لتستوعب التجارب الجزئية الناجحة القائمة

(٤) عبد الغفار رشاد
القصي، مناهج البحث في
علم السياسة (القاهرة:
مكتبة الآداب، ٢٠٠٤)، ص
٢٤٢.

وتضم إليها باقي أقطار هذا الوطن العربي الكبير، في وحدة قومية شاملة محققة الأمل أو الحلم العربي الذي لاينقطع البحث فيه ومن أجله.

تجدد الإشارة أيضا الى التجارب الكونفيدرالية العربية، سواء ما تم على المستوى القومي كجامعة الدول العربية أم على نطاقات جزئية مثل مجلس التعاون الخليجي ١٩٨١ والاتحاد المغاربي ١٩٨٩ ومجلس التعاون العربي الذي كان يضم مصر واليمن والعراق والأردن ١٩٨٩، وبينما لم يصمد الثالث وانهار سريعا فإن النموذجين الأول والثاني لايزالان قائمين على تفاوت بينهما في درجة الفعالية. وتشير تقارير عديدة الى تحركات جادة لإقامة اتحاد سعودي بحريني، والى خطوات لضم اليمن والأردن والمغرب ومصر الى مجلس التعاون الخليجي.

كما كانت هناك تجربة/مشروع تكاملي بين مصر والسودان ١٩٧٤ ذهب بذهاب راعييه، أي رئيسي الدولتين: السادات ونميري.

وبدرجة أو بأخرى، يمكن اعتبار كل من التجارب المذكورة خطوة على طريق (الوحدة) المأمولة في ظل أيديولوجية (القومية العربية).

كانت الحركة القومية العربية قد بدأت سرية تُولف من أجلها الخلايا في عاصمة الدولة العثمانية، ثم علنية في جمعيات أدبية تتخذ من دمشق وبيروت مقرا لها. واتضحت معالمها السياسية وأهدافها القومية في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس عام ١٩١٣، ولاحقاً سادت الفكرة القومية العربية أرجاء الوطن العربي، وتبلورت بشكل أوضح مقومات بناء هذه القومية على المستويين الشعبي والرسمي^(٥).

ثم أدت العلاقة الناصرية - البعثية الى تحويل الوحدة العربية من شعار الى واقع. فبعد عامين فقط من قيام ثورة تموز/يوليو ١٩٥٢، كان الاتجاه العربي خطأ ثابتا في أحاديث عبد الناصر الذي قال في خطابه بالأزهر - في الاحتفال بالعيد الثاني للثورة - "إن هدف حكومة الثورة أن يكون العرب أمة متحدة يتعاون أبنائها على الخير المشترك". ومنذ بدأ الحديث يتردد عن قيام الوحدة كان الحضور القومي لعبد الناصر قد تبلور. وقد وجدت "حركة القوميين العرب" في الثورة المصرية القوة العربية الوحيدة القادرة على تحقيق الوحدة العربية، ورأت في قيام الجمهورية العربية المتحدة ١٩٥٨ نواة للوحدة العربية الشاملة، وعلقت عليها الآمال كطليعة لمستقبل تلك الوحدة^(٦).

عقب فشل الوحدة المصرية السورية ١٩٦١ أعادت "حركة القوميين العرب" ترتيب سلم أولوياتها وأهدافها، بحيث تراجعت أولوية الوحدة لتصبح تالية لمهمة تحرير الأراضي العربية، ونادت بإدخال مضامين اجتماعية واقتصادية لفكرة الوحدة. لاحقا، اعتُبر انهيار تلك الوحدة سببا مباشرا لهزيمة حزيران/يونيو ١٩٦٧. ثم رُفِع في القاهرة شعار "الوحدة طريق تحرير فلسطين" وهو ما يؤكد أولوية تحقيق الوحدة القومية^(٧).

(٥) محمد أحمد خلف الله، "القومية العربية كما ينبغي أن نفهمها"، في: ساطع الحصري وآخرون، آراء ودراسات في الفكر القومي (الكويت: دار العربي، ١٩٨٥)، ص ص ٧١ - ٧٥.

(٦) عبد العال الباقوري، "عبد الناصروالبعث.. الوحدة والانفصال"، في: عبد القادر ياسين (محرر)، جمال عبد الناصر - رؤية مستعددة الزوايا (دمشق/القاهرة: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٨)، ص ص ١٩٦ - ١٩٨، و: دسامي يوسف أحمد، "عبد الناصر وحركة القوميين العرب"، في: المرجع نفسه، ص ص ٢٠٩ - ٢١٧.

(٧) سامي يوسف أحمد، "عبد الناصر وحركة القوميين العرب"، مرجع سابق ص ص ٢٠٩ - ٢١٧. و: ص ص ٦١٢ - ٦١٣.

كما فرضت جملة الانكسارات التي شهدتها مسيرة العمل العربي في العقود الأخيرة ضرورة البحث عن نقطة لاستئناف العمل في هذا المسعى؛ فبرغم كون التجربة العربية في العصر الحديث قد ازدهمت بالشعارات الخَلَاصية لكنها بقيت في الوقت نفسه متخمة بالتراكمات السلبيّة الذاتية، الأمر الذي جدد الدعوة الى مشروع شامل للنهضة والوحدة العربية^(٨).

ثانياً - المفاهيم المنهجية والموضوعية للدراسة

١ - مفهوم المنهجية العلمية:

يُعرف المنهج العلمي بأنه كيفية اكتساب المعرفة وتنظيمها وفهمها. وفي البحث العلمي السياسي - تحديداً - يتعين البدء بوضع قواعد محددة وقاطعة للتعريف بالواقع السياسي. وذلك من خلال ما يُعرف بـ (التحليل الإمبريقي) الذي يستخدم لغة عامة وموضوعية لوصف هذا الواقع^(٩).

كما يشير اصطلاح (منهج) الى الطريقة التي يتبعها الباحث لدراسة مشكلة ما، أو الى أسلوب التفكير المنظم والكيفية التي يصل بها الباحث الى هدفه. وفي إطار نظرية (التكامل المنهجي) يمكن استخدام أكثر من منهج للدراسة الواحدة^(١٠).

وإذا كان (العلم) نسقاً من المعارف العلمية المتراكمة أو مجموعة من المبادئ والقواعد التي تشرح بعض الظواهر والعلاقات القائمة بينها، فإن (المنهجية العلمية) هي أيضاً نسق من القواعد والإجراءات التي يعتمد عليها طريق البحث ويتم بها تحصيل هذا العلم. ومن خلال (الأسلوب العلمي) يعمل الإنسان على تنظيم تفكيره وبرمجته، وترتيب الخطوات المطلوب اتباعها لمجابهة حالة معينة أو مشكلة محددة تواجهه، بغرض وضع الحلول المناسبة والوصول الى المعرفة التامة المفيدة المبنية على أسس مدروسة^(١١).

تهدف العملية البحثية الى فهم العالم المحيط بنا. وهذا الفهم قد يكون هدفاً في ذاته وقد يكون مقدمة لتوقع التغيرات المقبلة وتطوراتها أو السيطرة عليها والتحكم في الواقع المحيط بنا. ومن شأن كل ذلك تحقيق الرقي بقدراتنا وإمكانياتنا في تطوير العالم والتأثير فيه^(١٢).

ذلك؛ لأن البحث العلمي لم يعد رفاهية أكاديمية تمارسه مجموعة من الباحثين القابعين في أبراج عاجية، فقد بات يلعب دوراً فعّالاً في تطوير المجتمعات الإنسانية. وفي صدارة وظائفه الأساسية الإسهام في عملية الضبط والتحكم في الظواهر والأحداث والوقائع والأمور والسيطرة عليها وتوجيهها واستغلال النتائج لخدمة الإنسانية. بل إنه يتدخل لحجب ظواهر غير مرغوب فيها، وإنتاج ظواهر مرغوب فيها. وهذا من أهم أهداف التخطيط المبني على المنهج العلمي. كما يسهم في تطوير المعرفة الإنسانية في البيئة المحيطة بكافة أبعادها وجوانبها، في الطبيعة والسياسة والاقتصاد والتكنولوجيا والإدارة

(٨) أحمد حلواني، تقرير عن: مؤتمر تجديد الفكر القومي والمصير العربي، المجلة العربية للعلوم السياسية (بيروت)، العدد ٢١، شتاء ٢٠٠٩ ص ص ١٩٥ - ٢٠٠.
(٩) جارول مانهايم وريتشارد ريتش، م. س، ص ص ١٧ - ١٩.
(١٠) فاروق يوسف يوسف أحمد، م. س، ص ص ٣٥، ص ٥١.

و: على الدين هلال (إشراف)، معجم المصطلحات السياسية (الجيزة، مصر: مركز البحوث والدراسات السياسية، ١٩٩٤)، ص ص ٧٣ - ٧٤.

(١١) <http://www.ergo-eg.com/comm/sr08.pdf>

(١٢) عبد الغفار رشاد القصبي، م. س، ص ص ١٣ - ١٢.

والاجتماع وخلافه. ويعمل على إيجاد الحلول للمشكلات المختلفة التي تواجه الإنسان في تعامله مع البيئة التي يعيش فيها^(١٣).
وجملةً، يُسهم البحث العلمي في العملية التجديدية التي تمارسها الأمم والحضارات لخلق واقع عملي يحقق سعادتها ورفاهيتها، ويعمل على إحياء المواضيع والأفكار وتحقيقها ميدانياً. كما أنه يسمح بفهم جديد للماضي في سبيل انطلاقة جديدة للحاضر ورؤية استشرافية للمستقبل^(١٤).

٢ - مفهوم الأيديولوجية *Ideology* :

تتعدد دلالات هذا المصطلح في اتجاهات عدة، غير أن في مقدمة ما يعنيه هو "أي مذهب سياسي منتظم وشامل، يدعي تقديم نظرية كاملة وعالمية التطبيق للإنسان والمجتمع، ويضع برنامجاً للحركة السياسية المبنية على هذه النظرية. فالأيديولوجية تعمل على احتواء كل ما يتعلق بالوضع السياسي للإنسان، وتخلق مذهباً ما، يعمل على التأثير في تشكيل ذلك الوضع أو تحويله"^(١٥).

٣ - مفهوم القومية *Nationalism* :

هي عاطفة أو أيديولوجية الارتباط بأرض معينة أو بوطن معين، وبمصالح هذا الوطن أو تلك الأرض. كذلك، هي النظرية التي مؤداها أن كل دولة لا بد وأن تقوم بالارتكاز على أمة، وأن كل أمة لا بد وأن تُشكل في دولة. وهذا يعني محاولة استخدام الحركة السياسية من أجل تحقيق الشخصية القومية^(١٦). إذن، تُعد (القومية) أيديولوجية، أي مذهباً سياسياً منتظماً وشاملاً، يدعي تقديم نظرية كاملة وعالمية التطبيق للإنسان والمجتمع ويضع برنامجاً للحركة السياسية المبنية على هذه النظرية.

وعليه، فإن الأيديولوجيات تتعدد، وتكون "الأيديولوجية القومية" إحداها.

٤ - مفهوم "الأيديولوجية القومية" :

كمفهوم حديث وكفكرة سياسية واجتماعية، ظهرت (القومية) بشكلها العلمي الدقيق في أوروبا في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر. وقد تبلورت - على أوضح صورة - في الثورة الفرنسية بأفكارها ومثلها وتشريعاتها وشعاراتها. ومن فرنسا انتقلت الى أقطار أوروبية عديدة بطريق التأثير الفكري أولاً. ثم انتقلت الفكرة القومية الى الأمة العربية مع بدايات القرن العشرين. وقد جاءت الصياغة العربية لمفهوم "القومية" ترجمةً للمصطلح الأجنبي *Nationalism* وهنا يجدر الانتباه الى انتهاء هذا المصطلح بالمقطع "*ism*" إن فيه معنى العقائدية والفعالية في أن واحد. فالقومية ككل المذاهب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المنتهية بهذه الحروف في اللغة الإنجليزية "*ism*" فيها معنى التمسك الإيجابي بعقيدة، مع الجد في الدعوة إليها والعمل من أجلها^(١٧).
تتألف "الأيديولوجية القومية" من أفكار عن طابع الأمة، وعن ماضيها وحاضرها

<http://www.ergo-eg.com/comm/sr08.pdf> (١٣)

و: ربحي عبد القادر الجديلي، مناهج البحث العلمي، ٢٠١١، في : www.ao-academy.org/docs/manahij20022011

(March 1, 2013)

(١٤) الجديلي، م. س. (١٥) على الدين هلال (إشراف)، معجم المصطلحات، م. س، ص ١٠١ - ١٠٢.

(١٦) المرجع السابق، ص ١٤٨.

(١٧) عبد الرحمن البزاز، دفاع عن العروبة، في: ساطع الحصري، مرجع سابق، ص ص ٨١ - ٨٢.

ومستقبلها، وعن رسالتها في العالم، وعن مهمة الدولة وواجبات الأفراد تجاه الأمة. كما أن جُماع التقاليد والمصالح والمثل العليا السائدة في أمة ما كثيرا ما تسمى "الطابع القومي" وبعضها متصل بفكرة الأمة، ومنها تتكون "الأيديولوجية القومية" و"التطلعات القومية". بل إن "الأيديولوجية القومية" تتناول الطابع الخاص للأفراد وبخاصة في البلاد التي يخضع فيها الفرد كلية للأمة. فحتى أكثر الأمور خصوصية، والتي يبدو لنا أنها لاعلاقة بينها وبين الشرف القومي أو العظمة القومية، مثل العلاقات بين الآباء والأبناء أو بين الرجل وزوجته، تنظمها الأيديولوجية القومية^(١٨).

كذلك، تمتد "الأيديولوجية القومية" الى العلاقات الدولية. ففي الدول الديموقراطية المسالمة - مثلا - تتبلور الأفكار الخاصة بعلاقاتها الدولية طبقاً للمعايير المعترف بها في السياسة الداخلية بتلك الدول^(١٩).

٥ - مفهوم أيديولوجية (القومية العربية) *ARAB Nationalism*

تأتي أيديولوجية (القومية العربية) كأحد تطبيقات مفهوم "الأيديولوجية القومية" أي على نطاق (الأمة) العربية فحسب. وهنا ينبغي الوقوف على دلالة مصطلح/مفهوم (الأمة).

٦ - مفهوم الأمة: *Nation* هو مفهوم جزئي مرتبط بفكرة القومية. كما تعتبر الأمة جزءا من مفهوم الدولة القومية. وبرغم عدم وجود تعريف فني للأمة، فإن أي تعريف إجرائي لها ينطوي على الإشارة الى أي مجموعة من الأفراد، يتبلور شعورها بالهوية المشتركة المبنية على قدر من الاستمرارية التاريخية والتجانس الثقافي والارتباط الجغرافي بمكان بذاته^(٢٠).

ويعد الشعور القومي أقوى عامل في السياسة الحديثة، وأقوى من أي مذهب سياسي آخر؛ فقد تحطمت تحت وطأة هجماته امبراطوريات كبرى، وقامت باسم القومية حروب وثورات غيرت خريطة العالم، ولم تستطع المصالح الاقتصادية ولا الأخلاق ولا الدين أن تحد من اندفاع هذا التيار^(٢١).

تقتصر معظم تعريفات الأمة على المعايير التي تميزها عن الأمم الأخرى مثل اللغة أو المدنية أو الدين أو الجنس أو الحقوق التاريخية أو الحدود الطبيعية أو المصالح الاقتصادية، ولكن ليس بينها ما هو الضروري - وحده - ضرورة مطلقة لتأليف الأمة. وإذا كان تكوين فكرة صحيحة عن الأمة لا بد أن يدخل في الاعتبار جوانبها المتعددة، فإن العامل الأساسي هو الوعي القومي؛ فبدون قدر كاف من هذا الوعي لا توجد الأمة^(٢٢). وهنا يجب التنبيه الى ما يلتبس على البعض أو يتعمده آخرون حين لا يفرقون بين "الوعي القومي" و"النزعة القومية". فإن الوعي القومي هو الشعور القومي "المسالمة"، أما النزعة القومية فهي الشعور القومي العدواني أو الروح العدوانية القومية أو الوطنية المتطرفة أو الشوفينية^(٢٣).

(١٨) فـردريك هـرتز، القومية في السياسة والتاريخ (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١١)، ص ٥٥، ص ٢٦، ص ٥١، ص ٥٧.

(١٩) المرجع السابق، ص ٦١ - ٥٩.

(٢٠) د. علي الدين هلال (إشراف)، معجم المصطلحات، م. س، ص ١٨١.

(٢١) فـردريك هـرتز، م. س، ص ٦.

(٢٢) المرجع السابق، ص ١٣ - ١٤.

(٢٣) المرجع السابق، ص ٤٣ - ٤٤، و: ص ٣٢٥.

٧ - مفهوم (العروبة):

لا يوجد هذا المصطلح في قواميس اللغة العربية بالمعنى الذي تفهمه الجماهير العربية اليوم، فهو مصطلح حديث أو تعبير مستحدث أو صيغة بديلة لمفهوم (القومية العربية). وأغلب الظن أنه ترجمة للمصطلحين *Arabism / Panarabism* ولاشك، فإن في هذه الصيغة من "الديناميكية" ما لا نحسه في أي صفة أو نسبة أخرى مشتقة من لفظ (عرب) (٢٤).

برغم ذلك، ظهرت في السنوات الأخيرة نظرية/دعوة الى (العُوربة). يقول دعائها إنها تختلف عن العروبة التي تُعد - في رأيهم - مجرد الانتماء الى الأمة العربية، بينما يعدون (العوربة) فكرة قائمة على ضرورة الحركة - في مواجهة العولة - من خلال إيجاد كتل عربي قوي يستطيع مواجهة ما يتعارض مع مصالحه من العولة. ذلك التكتل ليس سياسياً الآن ولكنه اقتصادي تجاري مجتمعي ثقافي (٢٥).

٨ - مفهوم (النزعة الرومانسية) في السياسة:

ظهرت الحركة الرومانسية في القرن التاسع عشر كقوة أساسية فاعلة ومؤثرة في المجتمعات الأوروبية وكردة فعل موازنة في مواجهة المسرفين في (العقلانية). وقد نما الفكر الرومانسي في الفن والحياة في عصر الاستنارة كتيار سفلي في أول الأمر تحت سطح من العقلانية، ثم تمرد على سيطرتها مع الوقت. وفي حين كان العقلانيون يبالغون في الدعوة الى تحرير عقل الفرد من أغلال الماضي تاق الرومانسيون الى حرية الخيال والعواطف والانفعالات وكرسوا سعيهم في أول الأمر لإصلاح الشعر، ثم وُجه بعد ذلك ضد متواضعات المجتمع أيضاً ثم امتد أخيراً الى السياسة. وأصبح (روسو) هو لواء الرومانسية السياسية التي بدأت كمذهب ثوري ثم تحولت الى قوة محافظة. تنطوي هذه النزعة على تمرد من الشباب ضد الشيخوخة وعلى رد فعل من المثقفين ضد المتواضعات المجتمعية/المدنية، وعلى حنين الى النعيم المفقود والى المستقبل الأفضل (٢٦).

تنتهي هذه المعالجة المفاهيمية بهيئتها المنطقية المتنامية تلك، الى مايلي:

١ - الإدراك/التسليم بوجود (أيديولوجية القومية العربية) كعقيدة سياسية تعبر عن الحضارة العربية فكراً وحركياً، وفي إطارها تبدو (الوحدة العربية) فكرة مثالية كبرى ينبغي أن يسعى لتحقيقها أبناء الأمة العربية.

٢ - إن التسليم بوجود أيديولوجية (القومية العربية) أو (العروبة)، بما يشيران اليه من معاني العقائدية والفعالية في أن، يوجب ضرورة الجد في الدعوة الى هذه الأيديولوجية والعمل من أجلها حتى تتحقق في معناها الأكمل، وهو (الوحدة العربية).

٣ - ان البناء الأيديولوجي لعقيدة (القومية العربية) على درجة من التكامل والتماسك تضمن بقاءً (الفكرة) واكتمالاً (الحركة) لهذه العقيدة السياسية. إذ يتوفر لبناء هذه

(٢٤) د. عبد الرحمن

البرزان، م. س، ص ٨٢ -

٨٤.

و: د. عبد الله عبد الدائم،

العروبة وآلام الماض، في:

ساطع الحصري، مرجع

سابق، ص ٨٠ - ٨٢.

(٢٥) التفصيل في: د.

ناصر الأنصاري، العوربة

في مقابل العولة - عناصر

لنظرية جديدة (القاهرة):

الهيئة المصرية العامة

للكتاب، ٢٠٠٢).

(٢٦) فرديريك هرتز، م.

س، ص ٤٠٠.

و: جيمس تريفيل، لماذا

العلم (الكويت: المجلس

الوطني للثقافة والفنون

والآداب، ٢٠١٠)، ص ص

١٠٥ - ١٠٨.

و: كرين برينتون، تشكيل

العقل الحديث (الكويت:

المجلس الوطني للثقافة

والفنون والآداب، ١٩٨٤).

ص ص ٦٠ - ٧٥، و: ص

ص ٤٩ - ١٥٩.

الأيدولوجية من الأسس الفكرية - التي أسهبت دراسات عديدة في رصدها وشرحها - ما يحفظ للفكرة الوحدوية توجهها وللأمل في انجازها بقاءً وتواصلًا.

المبحث الثاني

توظيف المنهجية العلمية لتحقيق الوحدة العربية

يقتضي المنهج العلمي في التفكير - لمعالجة ظاهرة سياسية اجتماعية كظاهرة الوحدة - قراءة الواقع الموضوعي بهدف الوعي بالقوى الأساسية الفاعلة في العملية الوحدوية، ولقياس مستوى تطور تلك القوى والعلاقات بينها، وتحديد اتجاه حركته، ومعرفة القوى الحليفة المؤقتة والثابتة، والقوى المعادية، وفهم طبيعة اللحظة التاريخية المحلية والدولية، التي تشكل الإطار الذي تُطرح فيه قضية الوحدة، والتماس الخطوات العملية الراشدة على طريق تحقيقها، وضرورة رصد أهم مواقع الخلل أو مكامن الضعف في الفكر الوحدوي العربي القائم، وهذه تمثل جانباً من جملة الأخطاء التي أدت إلى فشل تجارب الوحدة العربية حتى الآن (٢٧).

يمكن أن تتم هذه القراءة على مستويات ثلاثة:

المستوى الأول - القراءة الإمبريقية/الميدانية، وهذه تجريبها المؤسسات البحثية، فتكشف عن المؤشرات/المعطيات السلبية التي يمكن أن تعوق العمل المشترك على المسار الوحدوي، وعن المؤشرات/المعطيات الإيجابية التي يمكن أن تعزز العمل المشترك على المسار نفسه. كشفت بعض تلك القراءات عن العديد من المؤشرات السلبية على تردي الأوضاع العربية: اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وثقافياً وتربوياً، إلى الحد الذي جعل عمرو موسى - الأمين العام الأسبق للجامعة العربية - يعلن أن العرب قد وصلوا إلى مرحلة "تهدد بغرق السفينة العربية". وبات الكثير من المحللين يتساءلون: العرب.. إلى أين؟ (٢٨).

إلى ذلك، مؤشرات الفشل/الموت السريري لبعض نماذج العمل العربي المشترك، فقد (نامت) القمة المغربية ما يقارب عشر سنوات في الجزائر، إذ تأجلت عدة مرات ثم إلى أجل غير مسمى". ثم أصبحت (شأناً غربياً) أو ربيعاً وأميركياً أكثر منها شأناً مغربياً!!! (٢٩).

وغير ذلك هناك الكثير من المؤشرات السلبية التي يمكن أن تظهرها القراءة الإمبريقية / الميدانية للواقع العربي، وهذه مجرد أمثلة للوقوف على أهمية توظيف المنهجية العلمية في قراءة الواقع السياسي ..

على الجانب الآخر، تكشف القراءة ذاتها عن العديد من المؤشرات الإيجابية الدافعة لمسيرة العمل العربي المشترك في الاتجاه الوحدوي. من هذه المؤشرات ما يُعتبر أرضاً مهيأة للوحدة القومية المأمولة. تتمثل هذه الأرض المهيأة في بعض التجارب الوحدوية الجزئية

(٢٧) راجع:

- حامد خليل، "تصور العامل الذاتي"، في: الندوة الفكرية الأولى حول الوحدة العربية، حزب البعث العربي الاشتراكي، دمشق، ٢٤ - ٢٧ شباط/فبراير ١٩٨٦، ص ص ٤٣٥ - ٤٤٠.

- أسهمان شريح، "إخفاقات تجارب الوحدة العربية"، مجلة صامد (عمان، الأردن)، تموز/يوليو ٢٠١١، ص ص ٨٥ - ١٠٣. د. نديم البيطار، الفكر الوحدوي - نقد عام، مجلة الوحدة (الجمهورية اللبنانية)، عدد ٧، نيسان/أبريل ١٩٨٥، ص ص ٧ - ١٤.

(٢٨) عمرالحسن، "العرب.. إلى أين؟"، شؤون خليجية، عدد ٦٠ (لندن: ٢٠١٠)، ص ص ٦ - ٨.

(٢٩) أحمد السميحي، "حلم الشعوب وغياب الديمقراطية: مشروع الوحدة المغربية بين الآمال والأهوال"، في:

<http://www.alwihdah.com/fikr/fikr/2010-04-26-1066.htm> (April 30, 2010)

القديمة والحديثة التي يمكن توسيع دائرتها، خاصة ما يبدي منها رغبته في ذلك. لقد كسرت التجاربُ الوحدوية - التي تحققت في التاريخ العربي المعاصر - تلك القاعدة التي أُلصقت بالعرب طويلاً والقائلة "بأن العرب اتفقوا على ألا يتفقوا" (٣٠).

يعني ذلك أن تحقق هذا الحلم القومي جزئياً في بعض الأقاليم الفرعية بالعالم العربي يُؤشر على (عدم استحالة) تحقيق الحلم القومي الشامل يوماً ما، أخذين في الاعتبار الافادة من التجارب الوحدوية المعاصرة من خارج المنطقة العربية (٣١).

كانت ولا تزال دول الخليج - مثلاً - داعماً أساسياً للجامعة العربية في إطار تحقيق الحلم القومي الذي هو هاجس كل الشعوب العربية، وقد تنبعت تلك الدول الى أن قيام منظومة خليجية اقتصادية وسياسية تتوحد فيها مصالح هذه الدول قد يؤسس لما يلفت أنظار العرب الى ضرورة إعادة النظر في نظام جامعتهم وسياساتها. وقد تكون هذه المنظومة بآلياتها الواقعية نواة حقيقية لهذا التصحيح. وقبول طلب انضمام الأردن لمنظومة التعاون ودعوة المملكة المغربية للانضمام بلا أي ضجيج وبهذه الدينامية الواقعية يكشف عن سر نجاح تلك الآلية، كما يكشف عن واقعية رؤية هذه المنظومة لكل ما يعزز من قوتها ويمنحها أفقاً أوسع للتعاون اقتصادياً وسياسياً. وهي رؤية تؤكد أيضاً حقيقة التزام الخليجيين بإطارهم العربي وعدم انكفائهم على ذاتهم كدول متشابهة في أنظمتها وشعوبها وفي اقتصاداتها. وهي بالنتيجة خطوة حكيمة من قادة التعاون لعلها تسجل أهم رسالة للأمة العربية وهي أن طريق الوحدة الحقيقية يبدأ من هنا (٣٢).

كذلك فإن قواعد التاريخ في العلاقات العربية - العربية تسمح بالذهاب في اتجاه التوثيق والتقوية الى أبعد حد/أفق، أي الوحدة أو الاتحاد، ولاتسمح بالسير في الاتجاه المضاد إلا الى مدى محدود. ولن يجد السائر في الاتجاه المضاد إلا أبواباً موصدة أو مفتوحة الى جهنم! مما يُكسب (شعرة معاوية) متانة مستمدة من تلك القواعد، فقد استمرت هذه العلاقات وتحت أي ظرف تتمتع بحد أدنى مما يمكن تسميته "خط الرجعة" سواء على مستوى العلاقات الثنائية أم العلاقات الجماعية (٣٣).

المستوى الثاني - قراءة البعد الفكري للعمل العربي المشترك، والتي تكشف عن عدة مؤشرات/معطيات منها السلبي ومنها الإيجابي. ولعل أهم المؤشرات/المعطيات السلبية:

١ - غياب المنهجية العلمية في الفكر القومي العربي القائم:

لقد انشغل الفكر القومي العربي طويلاً بالقصد الوحدوي وضرورته دون وعي علمي كاف بالطرق الموضوعية لتحقيق دولة الوحدة. واكتفى بالحديث عن الوحدة كنتيجة حتمية لوجود قومي واحد. كما أنه اتسم بالتبشيرية و(الشطحات) الميتافيزيقية. وظل يعمل منفصلاً عن الواقع وقوانينه وينطلق من (الأوهام) والتصورات فحسب، ويعتمد الحذلة اللسانية والعبارات المنمقة والخيال الجامح. ولأن الفكر التبشيري هذا لا يدرس التاريخ

(٣٠) محمود النادي، "الوحدة العربية بين الحلم والواقع". في: <http://kenanaonline.com/users/MASCENTER/posts/139018> (July 28, 2010).

(٣١) انظر:

- عمر الضبياني، "الوحدة العربية حلم الأمة"، في: http://www.alwahdawi.net/news_details.phpsid=3784 (November 23, 2011).

- صالح عبد الرحمن المانع، "حلم الوحدة الخليجية"، في: <http://www.elaph.com/Web/NewsPapers/2012/5/736635.html> (May 19, 2012).

- رعد الحافظ، "في الذكرى العشريون للوحدة الألمانية / دروس وعبر"، في: <http://www.ahewar.org/debat/show.art.aspaid=2308> (October 3, 2010).

(٣٢) فهد السلطان، "الوحدة العربية تبدأ من هنا"، في: <http://www.alriyadh.com/2011/05/13/article632190.html> (April 7, 2012).

(٣٣) يونان لبيب رزق، "قراءات تاريخية على هامش حرب الخليج (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥)، ص ٥٦ - ٥٧.

والاجتماع فهو فكر (ترف وتفكه)^(٣٤). كما يرتب البعض على غياب منهج التفكير العلمي وسيطرة الفكر التبشيري الذاتي الطوباوي - القائم على الخيال - ما يصفونه بالقصور الفكري ويضعونه في صدارة الأوجه الرئيسية لما يُعرف بـ(قصورالعامل الذاتي لدى الجماهير العربية)^(٣٥).

لذا، فإن الإنسان العربي المعاصر يحتاج في واقعه الى الوعي العقلي والأخذ بمنطق التحليلات ذات الطابع العلمي الواقعي؛ للتقليل من الإفراط في الاتجاه اللاعقلي^(٣٦). وضمن مقومات وخطوات إقامة الكيان العربي المنشود، ينصح الرمز العروبي الكبير - قسطنطين زريق - بالابتعاد ما أمكن عما أسماه (الخيال المخدر والرومانطيقية المائعة)^(٣٧)؛ فقد كان في مقدمة أسباب انهيار الوحدة المصرية السورية قيامها - وكذلك غيرها - على أسس عاطفية فحسب^(٣٨).

٢ - ميل العقلية العربية الى التفسير التأمري:

لا يزال قطاع كبير من العقلية العربية يميل الى توظيف نظرية المؤامرة في تفسير عمليات التغيير السياسي بسبب موروثها الثقافي وميلها الى الغيبية أكثر من ميلها الى السببية وإلفها العيش طويلاً في دور (المفعول به) أمام القوى الاستعمارية^(٣٩).

٣ - سيطرة حالة (الشيذوفرينيا السياسية) على الحياة العربية:

استمرت معظم الأنظمة العربية تغذي الدعوة القومية نفاقاً وليس استجابة لدواعيها؛ حفاظاً على (الشرعية) في بعض الأحيان وركوباً للموجة في بعضها الآخر حتى إن ذاكرة هذه النظم قد شابها تناقض مرير بين ما تظهره وما تبطنه، فباتت تسلك نحو أهدافها الوطنية طريق القومي والوحدوي، حيث المثاليات القومية جميعها تصبح غطاء لكل سلوك منفلت ومتطرف في القطرية. وقد وصلت المأساة أقصاها حينما أعلنت دولة سيادتها على الأخرى تحت غطاء القومية. ومن ثم بات ضرورياً تحديد معالم الطريق التي بها يمكن تجاوز حال الشيذوفرينيا السياسية التي تكاد تسيطر على الحياة العربية وتثير حالة من عدم التسامح مع الآخر العربي، على حساب الرابطة القومية^(٤٠).

وتكشف القراءة ذاتها - في البعد الفكري للعمل العربي المشترك - عن عدة مؤشرات إيجابية لعل أهمها هو (وفرّة) الأسس الفكرية لبناء أيديولوجية القومية العربية والتي أسهبت - كما سبق - دراسات عديدة في رصدها وشرحها، إذ يتوفر لتحقيق الوحدة العربية من الأسس الفكرية ما لا يتوفر لغيرها مثل (الوحدة الأوروبية) أو (الوحدة الأفريقية). وهوما يعد محدداً إيجابياً يضمن للوحدة - حتى لو أتت بقرار غير صحيح من الناحية الشكلية أو الإجرائية - أن تجد طريقاً قابلة للسير عليها برغم ما بها من عثرات. كما أن ما يُثار من تخوفات بشأن احتمال تعرض الهوية الوطنية لمفارقة بين التزويج والتفتيت وأثر هذين التهديدتين على الهويات الوطنية وإعادة ترتيب انتماءات الإنسان

(٣٤) أسمهان شريح، م.س. وللتفاصيل: دنديم البطار، م.س، ص ٧ - ١٤.

(٣٥) حامد خليل، تصور العامل الذاتي، مرجع سابق، ص ٤٣٥ - ٤٤٠.

(٣٦) محمد إبراهيم الفيومي، "في نقد العقل العربي المعاصر"، الأهرام (القاهرة)، ١١/١٦/٢٠٠٠.

(٣٧) السيد يسين، "المسألة النقدية للممارسات العربية"، الأهرام (القاهرة)، ١١/١٦/٢٠٠٠.

(٣٨) من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة. نشر الكتروني، في: <http://April 5, 2012. ar.wikipedia.org/wiki>

(٣٩) يونان لبيب رزق، قراءات تاريخية، مرجع سابق، ص ١٠٩ - ١١٦.

(٤٠) صلاح سالم، معالم على طريق تجديد الفكر القومي العربي، مجلة شؤون عربية (القاهرة)، شتاء ٢٠٠٤، ص ١٢٦ - ١٣٢.

العربي ما بين الدائرة الوطنية والعربية والإسلامية، خاصة بعد بروز قوى سياسية جديدة أغلبها ذات مرجعية إسلامية^(٤١)، هي تخوفات مردود عليها بما هو مقرر في التراث والعقيدة الإسلامية بشأن مكانة (الوطن/الوطنية) ومكانة (العرب/العروبة) وواجب المسلم نحو وطنه وقوميته^(٤٢).

المستوى الثالث - القراءة في مدى حضور العقيدة القومية ودرجة الإيمان بإمكانية تنفيذها، لدى الرأي العام العربي أو قادة هذا الرأي. فإن أية محاولة للوقوف على مستوى هذا الحضور أو درجة ذلك الإيمان تكشف عن تباين واضح بين فريق المتكبرين لهذه الوحدة الياثسين من إمكانية تحقيقها، وفريق المؤمنين بهذه العقيدة القومية/الوحدة العربية الساعين لتحقيقها.

يرصد فريق المتكبرين لفكرة الوحدة العربية، الياثسين من إمكانية تحقيقها، العديد من الأسباب التي يرونها كفيلة باستحالة تحقيق تلك الوحدة العربية، بل يعتبرها بعضهم وهماً أو حلماً تبخر، وذلك في ضوء ما يصفونه بالواقع الرديء والمحبط والملوء بالتناقضات وعوامل الانقسام والتفتت^(٤٣).

على الجانب الآخر، يرى المتفائلون، المتمسكون بالعقيدة القومية، أن مجرد التعلق بالحلم القومي الوجودي هو أخف وطأة من الكابوس التفتتي الجاثم على صدر الأمة حالياً^(٤٤). ويرون أن "الوحدة العربية" لا تزال على قيد الحياة وأن القومية العربية - على الرغم من الهزائم المتكررة التي لحقت بها وعلى الرغم من المحاولات التي بُذلت لخفض توقعات الناس لها إلى مجرد "أحلام يقظة" أو "يوتوبيا" ماضوية - قد نجت من الموت، لأنها عوّلت على الكتلة الشعبية وليس على الحكومات، فقد تبين أن الشعوب العربية تتوق للوحدة الجامعة، ليس في مستوى مفهومها النخبوي الذي يعني التقارب والتعاون في حدوده الرسمية الشكلية فحسب، ولكن الوحدة التي تنسجم مع رغبة الجماهير في المضي قُدماً ومَعاً، في مواجهة كل التحديات الماثلة التي لا يمكن حلها إلا على أساس العمل المشترك^(٤٥).

ثم إن الجهود المجتمعية والشعبية المتعلقة بالحلم العربي لاتزال متواصلة، وتعمل في مسارات متعددة أدبية وفنية ورياضية وغيرها. وهي مهما تكن قليلة أو متواضعة لكنها موجودة^(٤٦).

بل إن أمر المطالبة الشعبية بالوحدة العربية قد وصل إلى قاعات المحاكم بشكل رسمي، إما على مستوى الأمة العربية كلها وإما على مستوى الاتحادات الإقليمية. ففي منتصف تموز/ يوليو ٢٠٠٠ نظرت إحدى محاكم القاهرة دعوى تتهم الحكام العرب بالتقصير في إقامة هذه الوحدة، مستندة إلى ما آلت إليه حال الأمة العربية من ضعف وهو أن بسبب تفرقها واختلافها. وفي الوقت نفسه كان النائب العام في الجزائر ينظر في دعوى أخرى

(٤١) مركز الخليج للدراسات الاستراتيجية، مستقبل النظام العربي في ضوء صعود قوى سياسية جديدة، (تقرير) عن الندوة التي نظمتها المركز الدولي للدراسات الاستراتيجية والمستقبلية يوم ٨١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢، تحت عنوان "مستقبل النظام العربي في ضوء الثورات الشعبية .. وصعود قوى سياسية جديدة". على :

<http://www.akhbar-alkhaleej.com/12366/article/4482.html>(January 31, 2012)

(٤٢) عبّس الغني عماد، "مراجعة لكتاب: الفهم - خوري، عزام باشا.. مصري اعتنق القومية العربية"، المجلة العربية للعلوم السياسية، العدد ٢٠ (بيروت: ٢٠٠٨)، ص ص ١٧٢ - ١٧٤.

(٤٣) انظر: - الوحدة العربية. هل تبخر الحلم؟! رؤية تحليلية، في: <http://www.asharqalarabi.org.uk/paper/s-ruiah-w-a5.htm>(February 2, 2012).

- باسم الجسر، "إلى أين وصل حلم الوحدة العربية" بعد قرن؟! في :

<http://www.aawsat.com/leader.aspx?section=3&article=577982&issue-no=11550#.UWU64GdbenA>(July 13, 2010).

=
- فتحي الحُبوبي، "الإنسان
العربي بين الأحلام الجميلة
وإكراهات الواقع الرديء"،
في:

[http://nasiriyah.org/ara/post/30487\(April5,2013\)](http://nasiriyah.org/ara/post/30487(April5,2013)).

- حسن محمد طوالب، "حلم
الوحدة في عصر التقنيات"،
في: [http://](http://www.ahewar.org/debat/show.art.aspaid=2675)

www.ahewar.org/debat/show.art.aspaid=2675
97(July 17, 2011).

- فاضل فضة، "شعار
الوحدة العربية بين الحلم
والواقع المحبط"، في:

[http://](http://www.ahewar.org/debat/show.art.aspaid=1912)
www.ahewar.org/debat/show.art.aspaid=1912
6(April 8, 2012).

- أحمد كمال الدين، "القمة
الاقتصادية تفتح الملف
مجدداً... الاختلافات
السياسية والاقتصادية
وإسرائيل أسباب فشل
تحقيق الحلم العربي"، في:

[http://](http://www.alarab.com.qa/details.phpdocId=170483&issueNo=1130&secId=15(January1,2011))
[www.alarab.com.qa/details.phpdocId=170483&issueNo=1130&secId=15\(January1,2011\)](http://www.alarab.com.qa/details.phpdocId=170483&issueNo=1130&secId=15(January1,2011)).

- غيرالد بات، "الانقسامات
المستمرة تجعل الوحدة
العربية حلماً"، في: [http://](http://www.bbc.co.uk/arabic/middleeast/2012/10/121023_egypt_arabs.shtml)
www.bbc.co.uk/arabic/middleeast/2012/10/121023_egypt_arabs.shtml
(October 23, 2012).

عُرفت بقضية (اتحاد المغرب العربي) تتهم حكام دول المغرب العربي بالعجز عن تحقيق حلم الجماهير المغاربية في بناء اتحاد مغاربي فعال وقوي. وغير هذين النموذجين هناك الكثير من الدعاوى الشعبية في المشرق العربي، الأمر الذي ينم عن درجة من الوعي القومي العربي (٤٧).

في الاحتفال بالذكرى الرابعة والخمسين للوحدة المصرية السورية - ٢٨ / ٢ / ٢٠١٢ - أكد اتحاد "المحامين العرب" بندوته تحت عنوان "الوحدة العربية ومخاطر التقسيم" أن الوحدة العربية هي مكن عزة الأمة ونهضتها وهي الحصن والمناعة وهي الأمل والرجاء وجزء من فكرنا وعقيدتنا، وبها سيتحقق التكامل السياسي والاقتصادي والاجتماعي بين أبناء الأمة، وعليها تنكسر كل مشاريع الهيمنة والسيطرة والتبعية. ثم في الذكرى الحادية والخمسين للانفصال أكد اتحاد المحامين العرب في بيانه - ٢٥ / ٩ / ٢٠١٢ - أنه رغم مرارة الانفصال وأثاره السلبية على مستقبل الأمة العربية فإن الجماهير العربية تؤكد كل يوم أن حلم الوحدة سوف يبقى ما بقيت هذه الجماهير، فلا حاضر حقيقيا ولا مستقبل لهذه الأمة بغير الوحدة؛ فهي الوعاء السياسي والاقتصادي والاجتماعي للأمة وهي المستقبل الحقيقي لجماهيرها في الحرية والاستقلال والتقدم.

إذن وأخيراً، تستطيع المنهجية العلمية - من خلال قراءة الواقع السياسي العربي وتحليل معطياته - أن تضع أمام صانع القرار السياسي القومي كافة المؤشرات الإيجابية والسلبية المتعلقة بهذا الواقع ومدى جهوزيته للبدء في تأسيس الوحدة العربية الشاملة. لكن هل تكفي هذه المنهجية العلمية وحدها؟ أم لا بد - الى جانبها - من وجود (حلم/نزعة رومانسية/ارتباط شعوري/تعلق وجداني) بهذا المشروع ليتم إنجازه؟ فتكون تلك (النزعة الرومانسية الوجدانية) أو ذلك الحلم بمثابة القاطرة أو نقطة الجذب التي تتعلق بها أو تسعى في الوصول إليها الجهود الوحدوية لأبناء الأمة.

المبحث الثالث

أهمية النزعة الرومانسية في بلورة الطموح القومي

يتأثر الطابع القومي بالفكر في صورة الشعر والفن، بل إن تأثير مثل هذه العوامل يكون عادة أقوى بكثير جدا من تأثير الفلسفة (٤٨). ولاشك فإن أي رسالة فنية أو أدبية لا تخلو من نزعة رومانسية، كمكون أساسي في بنية هذه الرسالة التي تخاطب الشعور/الوجدان القومي لتؤثر فيه أو لتعيد تشكيله في بعض الأحيان. وعليه، فلا معنى لـ(اتهام) أصحاب الفكر القومي العروبي الوحدوي - أوغيرهم من أصحاب العقائد القومية الأخرى - بأنهم (رومانسيون)؛ فإن رومانستيتهم هذه ليست نقيصة فيهم بل إنها قيمة مضافة لديهم ومملكة إبداعية تلعب دوراً أساسياً في تشكيل (الحلم) القومي لديهم، وتُحرك - بدرجة ما - نزعة

التغيير الرامية الى تحقيق (الأفكار المثالية الكبرى) وعلى رأسها وحدتهم القومية. إن (الحلم) بمستقبل أفضل لأي أمة هو أحد مكونات (الفكرة أو الأيديولوجية القومية) لدى أبناء هذه الأمة. ولا يمكن التهوين من شأن (الحلم): فهو جملة المثل العليا والمقاصد المنشودة - لهذه الأمة - التي يتم التعبير عنها فكريا: دينيا وأديبا وفنيا. ولم تخلُ الأيديولوجيات القومية الكبرى في أوروبا من هذا المكون/العنصر، أي (الحلم)، بل إن كبار المفكرين القوميين هناك لم يترددوا في التصريح بأن (الرومانسية) كانت في مقدمة عوامل بناء الفكرة/العقيدة القومية لديهم.

في ألمانيا، برغم أن المفكرين الرومانسيين لم يكونوا زعماء الحركة القومية الصاعدة ولم يكن لهم نفوذ كبير على الرأي العام في المسائل السياسية، فقد أسهموا في تكوين أيديولوجية صارت فيما بعد أساس (النزعة) القومية. وكان الإسهام الرئيسي للفكر الرومانسي في بناء الأيديولوجية القومية الألمانية متمثلا في وصف وتأكيد الفردية القومية - التميز - ومقارنتها بالقوميات الأخرى. وكان أهم أصحاب النظريات السياسية والاقتصادية الرومانسية الألمان هو آدم مولر الذي نُشرت كتاباته ١٩٣١، وفي بريطانيا بلغ الفكر الرومانسي ذروة قوته وبهائه عند توماس كارلايل الذي كان قد تأثر كثيرا بالرومانسيين الألمان. وقد لقيت أفكاره رواجاً أكبر خارج بريطانيا، واستُخدمت في بلاد أخرى بواسطة دعاة القومية في صياغة أيديولوجياتهم. وكان جيسسبي مازيني (١٨٠٥-١٨٧٢) الذي يعد من أكثر شخصيات عصر البعث الإيطالي سحرا وتتقارب فلسفته مع فلسفة الميتافيزيقيين الألمان - خاصة نيتشه وهيجل - قد تأثر أيضا بالرومانسية الألمانية والفرنسية تأثرا كبيرا جدا في صياغة أفكاره، ثم كرس حياته كلها لتحرير إيطاليا وتوحيدها. وكانت الضرورة الأولى لتحقيق خطط مازيني هي الاستقلال القومي^(٤٩).

كذلك، كان الحلم القومي واحدا من أبرز مقاصد كبار شعراء الأمة العربية وكتابها في التاريخ الحديث والمعاصر والراهن، غير غافلين عن ربطه بمعطيات واقع الأمة. على سبيل المثال، كان الشاعر الفلسطيني برهان بن أحمد راغب الدجاني (١٩٢٠ - ٢٠٠٠) من المؤسسين لحركة القوميين العرب ومن أوائل الداعين لإنشاء السوق العربية المشتركة (١٩٤١) وكان يراها المدخل الواقعي للوحدة العربية^(٥٠).

ولم يكن الزعيم القومي جمال عبد الناصر وحده الذي قال لأُم كلثوم إنها نجحت فيما فشل فيه القادة العرب، فإن كبار رموز التوجه والعمل القومي العربي من السياسيين كانوا مدركين لأهمية المكون الفني - الرومانسي والوجداني - في الفكرة القومية^(٥١). وكما غنّى/توحد الفنانون من أقطار العالم العربي منذ نصف قرن بأوبريت (وطني حبيبي يا وطني الأكبر) فقد شدا أبناؤهم وأحفادهم اليوم بأوبريت (الحلم العربي) منطلقين من إحساسهم القومي دون تكليف من جانب أي مؤسسة إعلامية أو فنية حكومية.

(٤٤) أحمد الشيخ، "الاتحاد العالمي للشعراء العرب - حلم يتحقق...!"، فني: [www.aswat-elchamal.com/ar/p=98&a=32222\(April 25, 2013\)](http://www.aswat-elchamal.com/ar/p=98&a=32222(April%2025,2013)).

(٤٥) الصادق الفقيه، "الثورات العربية ومخاض الوحدة الطويل"، في: [http://studies.aljazeera.net/issues/2011/07/20117236422374902.htm\(July 23, 2011\)](http://studies.aljazeera.net/issues/2011/07/20117236422374902.htm(July%2023,2011)).

(٤٦) محمد عبد الشافي، "شباب الكشافة العرب: حلم الوحدة مازال ممكناً"، فني: [http://digital.ahram.org.eg/articles.aspxSerial=1016136&id=948\(September 7, 2012\)](http://digital.ahram.org.eg/articles.aspxSerial=1016136&id=948(September%207,2012)).

و: الشباب الليبي، "العملة العربية الموحدة حلم مالي موحّد في ظل واقع سياسي مجزأ"، على: [mypage.traidnt.net/P-1108-5572\(May 7, 2012\)](http://mypage.traidnt.net/P-1108-5572(May%207,2012)).

(٤٧) مصطفى عبد الغني، "الوحدة العربية بين العولمة ومحكمة الاستئناف"، الأهرام (القاهرة)، ٢٠٠٠/٧/١٧.

(٤٨) فرديريك هرتز، م. س، ص ٣٢٥.

(٤٩) المرجع السابق، ص ٤٠٠ - ٤٣٨.

و: لوك. هيوم. روسو، العقد الاجتماعي، ترجمة عبد الكريم أحمد (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١١)، ص ٥ - ٣.

(٥٠) للتفاصيل، راجع:

- سليمان إبراهيم
العسكري، "السقاف...
الشاعر المعلم.. رائد الوعي
القومي"، مجلة العربي
(الكويت)، نوفمبر ٢٠١٠،
http://

3arabimag.com/

SubjectArticle.aspID

=2946(April 5,

2013).

و: سيد إبراهيم أرمن،
"جيل الشعراء الرواد في
دولة الكويت"، في:

http://

www.diwanalarab.com/

ml/

spip.phparticle21440

(April 5, 2013).

http://

www.alfikralarabi.org/

g/

modules.phpname=N

ews&file=article&sid

=1290(April 5, 2013).

http://

www.almoajam.org/

poet_details.phpid=1

439(April 5, 2013).

(٥١) سداد جواد التميمي،

"أم كلثوم وشعراء عرب

والوحدة العربية"، على:

http://

www.akhbaar.org/

home/2011/06/

111424.htmlprint

(April 5, 2013).

(٥٢) محمد محفوظ،

"التجارب الوجدانية

المعاصرة - سورية ومصر"،

في: الندوة الفكرية الأولى،

مرجع سابق، ص ١٨٤.

ظهرت الأوبريت الأول مع ولادة الجمهورية العربية المتحدة ١٩٥٨، حيث انطلقت الأغاني الوطنية مرحبة بهذا الإنجاز الذي كان حتماً للكثير من العرب، وقام بتلحين هذا الأوبريت الفنان الراحل محمد عبد الوهاب عام ١٩٦٠ والذي كان من المرشحين بهذه الوحدة، وقام بالغناء فيه نخبة من فناني العصر الذهبي في مصر والوطن العربي، وقد نجح هذا النشيد لتناوله مفاهيم شاملة مثل الوحدة العربية، وعدم تحيزه لنظام سياسي معين، ولم يذكر اسم أي زعيم عربي. ثم ظهر الثاني ١٩٩٨ واشترك فيه عدد من المغنين العرب المشهورين ليعبروا عن طموح الشعوب العربية في الوحدة المأمولة أيضاً.

بل إن هذا الحس الرومانسي الحالم المتفائل كثيراً ما خالط كتابات بعض المحللين السياسيين، ورأوا أن مآل الكابوس التفتيتي الحالي في المشهد العربي هو إلى زوال؛ تأسيساً على أن التباين بين الأقطار العربية في البنى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وسواها كان ولا يزال تبايناً نسبياً محدوداً لأنه - في غالبه - صناعة غربية، وسيظل أمراً عارضاً مهماً ظل الاستعمار يجتهد في حراسته وتكريسه، ويمكن تعجل نهايته بتكثيف جهود العمل الوجداني ومواصلته. ثم إن قضية (وحدة الأمة العربية) هي قضية حياة ومصير، أي قضية سياسية تتجاوز قضية التباين والتشابه وغيرها مما تناولته الدراسات الاجتماعية. هذا، إلى جانب أنهم لا يرون في هذا التباين إلا تنوعاً في إطار الاتساق وتكاملاً في إطار الوحدة ومصدراً للخصب والثراء، وأنه أشبه باللونيات والألحان الفرعية التي تغذي اللحن الأصيل أو الأساسي. ولا يحيل هذا التنوع إلى تصارع وشقاق إلا واقع التجزئة هذا واستمراره^(٥٢).

ومنذ ما يزيد على تسعين عاماً، أحصى المفكر الوجداني الأمير شكيب أرسلان مائة مشروع استعماري لتقسيم العالم العربي. لكنه رغم ذلك كان يبدي تفاؤلاً كبيراً بإمكانية تجسيد حلم الوحدة العربية، مستنداً إلى أن العرب أمة كاملة تتوفر لها جميع العناصر التي يتطلبها بناء كيان الأمم من الناحيتين السياسية والاجتماعية، ومشترباً تمسك العرب بقوميتهم وشخصيتهم، وغرس الفكرة في الأذهان، ونبذ الخلافات الشخصية^(٥٣).

حالياً، يدعو الكاتب المصري أنيس الدغدي (١٩٦٠ - ...) مؤسس حزب الوحدة والإبداع، إلى تحقيق الوحدة العربية الشاملة لإقامة الولايات المتحدة العربية. ولاختيار هذا الكاتب - مثلاً - دلالة؛ فهو حائز على تقدير أفضل كاتب عربي عام ٢٠٠٤ وتحتل بعض كتبه المركز الأول كأعلى توزيع ضمن قائمة الكتب العشرة الأولى في العالم العربي وأعلى توزيع ضمن ٢٠ مليون على مستوى العالم. وتلقى مؤلفاته اهتماماً سياسياً أميركياً وأوروبياً خاصاً؛ حيث تناقش مؤلفاته وتتابعها بشكل غير تقليدي وكالة المخابرات الأميركية والقيادة السياسية الأميركية^(٥٤).

الخلاصة

كما تأثر الطابع القومي بالشعر والفن لدى الأمم الألمانية والبريطانية والفرنسية والإيطالية وغيرها، وكما كان للفكر الرومانسي إسهام رئيسي في بناء أيديولوجياتهم القومية، حتى أصبحت الضرورة/الغاية الأولى لخطط المفكرين الرومانسيين لديهم هي تحقيق الاستقلال القومي وتحرير تلك الأمم وتوحيدها.. فإن الظاهرة نفسها لم تغب عن الأمة العربية، إذ كان ولا يزال للشعر والفن والنزعة الرومانسية دور في بلورة الحلم/الطموح القومي العربي الوحدوي.

المبحث الرابع

إشكالية الجمع بين (المنهجية العلمية) و(النزعة الرومانسية) لتحقيق الوحدة العربية

بعد الوقوف على أهمية المكون (المثالي/الرومانسي) في بلورة الأيديولوجية القومية والطموح القومي، يُثار التساؤل عن مدى إمكانية توظيف هذا العنصر/ المكون في تطبيق هذه الأيديولوجية، وبيان أوجه التباين والتكامل عند توظيف كل من المدخل الرومانسي والمنهج العلمي، في المسعى نفسه.

مدى تكاملية (المنهجية العلمية) مع (النزعة الرومانسية) في تطبيق الأيديولوجية القومية:

إذا كانت السمة الرئيسية لـ (المعرفة العلمية) أنها تتعامل مع ظواهر معيشة اجتماعياً وإنسانياً، وأنه يمكن التعبير عنها بمجموعة من المؤشرات الكيفية والكمية، وأن بحثها ينطلق من تحديد مشكلة ما، ومن تحديد مجموعة من الفروض أو الأسئلة البحثية المرتبطة بها^(٥٥) فإن هذا لا يتوفر لـ (الحلم) الذي تغلب عليه أو تخالطه (النزعة الرومانسية)، غير أن جوهر هذه النزعة الرومانسية هو التوق إلى الأفضل والتمرد أو الثورة على الأوضاع المعيشة واقعيّاً. وهنا تكمن أواصر العلاقة الوثقى التي تربط بين الاقترابين المذكورين؛ فحتى يتحقق الحلم/الرؤية المستقبلية (وضمنها المكون الرومانسي) لابد من خطوات مدروسة وخطط دقيقة مبنية على وصف الواقع السياسي وتحليله، وهو ما يوفره (المنهج العلمي).

كذلك فإن النمط المثالي - *Ideal Type* وهو أداة منهجية علمية - يكتسب صفته المثالية من كونه بناءً تصورياً يخلقه العقل. ولأن هذا النمط لا يقف عند مجرد وصف الواقع بكل تفصيلاته، وإنما يلعب عنصر التصور - فضلاً عن إبداع الباحث - دوراً مهماً في صياغته، أي صياغة هذا النمط، رغم استناده إلى أساس واقعي^(٥٦)، وهذا يؤكد أن العنصر التصوري/الإبداعي هو مكون أصيل في بناء الفكرة/المثال/النمط الذي يتم إعداده للقياس

(٥٣) عبد الودود شلبي، الإسلام وخرافة السيف- القاهرة، دار الخليج، ١٩٨٧. ص ص ١٣٨ - ٢٣٩.

[http://\(٥٤\)](http://(٥٤))

ar.wikipedia.org/

wiki(April 5, 2012).

(٥٥) علي الدين هلال، العلم والمنهج العلمي، المجلة العربية للعلوم السياسية، العدد ١٦، (بيروت: ٢٠٠٧، ص ٥٤ - ٥٥).

(٥٦) عبد الغفار رشاد القصبي، م. س، ص ٢٥٠.

(٥٧) للتفاصيل، راجع:

أحمد و: زيارة، م. س، ص
ص ٦٦ - ٣٥، و: د. أحمد
يوسف أحمد، محاضرات
في (نظرية العلاقات
الدولية) لطلبة السنة
التكميلية - مرحلة الدكتوراة
بقسم العلوم السياسية -
جامعة القاهرة، ١٩٩٧.

(٥٨) سلامة كيلة، إشكالية
الحركة القومية
العربية (دمشق: دار كنعان
للدراسات والنشر،
١٩٩١)، ص ٦٨ - ٦٩.

(٥٩) على الدين هلال،
"علم عربي للسياسة أم
مدرسة عربية في علم
السياسة"، المجلة العربية
للعلوم السياسية، العدد
٢ (بيروت: ٢٠٠٦)، ص
٤.

و: ديفيد ب. رزنك،
أخلاقيات العلم (الكويت:
المجلس الوطني للثقافة
والفنون والآداب، ٢٠٠٥)،
ص ٢١ - ٦٠.

و: محمد مختار الزقزوقي،
الأخلاق والسياسة
(القاهرة: مكتبة الأنجلو
المصرية، ١٩٩٨)، مواضع
عدة.

(٦٠) لطفي السيد
عبد العظيم، "الخيال العلمي
في مناهج البحث"، الأهرام
(القاهرة)، ٢٦/٨/٢٠٠٠.

عليه أو محاكاته، أو تطبيقه في الواقع. الأمر الذي يبرهن على مدى الحاجة الى المكون
التصوري/الإبداعي في المنهجية العلمية. ولاشك، فإن هذه المضامين - التصور/الإبداع -
هي جوهر الخيال والحلم والفكرة الرومانسية.

وبرغم أن الجانب الأكبر من المنهجية العلمية ينصب على قراءة الواقع وتحليله، فلا يزال
جانب من هذه المنهجية يتمثل في (التيار المثالي في منهجية دراسة العلاقات الدولية) الذي
يمدنا ب(الأفكار المثالية الكبرى) من أجل السعي لتحقيقها، ولاتزال التصورات المثالية تبين
لنا ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع الدولي. يعني هذا أن ظهور تيارات أخرى في منهجية
دراسة العلاقات الدولية، كالتيارات الواقعية والسلوكية، لم ينف عن التيار المثالي صفته
العلمية، فقد ظل يحتفظ بهذه الصفة، وإن ضاقت دائرة توظيفه^(٥٧).

وإذا كان بعض من كتبوا عن (أزمة الأيديولوجيا) قد رأوا أن التيار/المنهج المثالي غير
قادر على تحليل الظروف الواقعية، وأنه يعيد تكريس المفاهيم المثالية، السائدة أساساً في
المجتمع العربي الذي يُعد "موطن" المناهج والأفكار والمفاهيم المثالية^(٥٨)، فإن هؤلاء قد
جانبهم الصواب إذ جعلوا التيار المثالي في مواجهة مع التيار الواقعي، بينما لكل من
التيارين وجهته وغايته وأدواته، دون مواجهة أو مقابلة، بل إنهما قد يتكاملان في بعض
الدراسات. أيضاً، يمكن الرد على هؤلاء بسؤالهم: أفلا يكفي هذا التيار/المنهج المثالي أنه
يصون ويحرس، أو يكرس ويثبت (الأفكار والمفاهيم المثالية) فيكون التعلق بها دافعاً الى
محاكاتها وتطبيقها، ودافعاً الى تغيير الواقع الى الأفضل، أو لتكون تلك المفاهيم معياراً
يقاس اليه الواقع، فنتبين - ونحن نحلل هذا الواقع بأحد المناهج الواقعية - مدى جهوزية
هذا الواقع للسير فيه، وكيفية التعامل مع معطياته، ومدى صحة ما اتُخذ بشأنه من
قرارات، أو رُسم له من سياسات؟! ثم إن أنصار المدرسة السلوكية - في شكلها المتعسف -
حين دعوا في الخمسينيات من القرن السابق الى إنشاء "علم سياسة خال من القيم" والى
الابتعاد عن الانحيازات الفكرية والقيمية، فإن دعوة هؤلاء لم تلق قبولاً لدى جمهوره
الباحثين في الدول النامية - ومنها المنطقة العربية - الذين رأوا في تلك الدعوة تخلياً من
الباحث عن مسؤوليته الاجتماعية والسياسية. بل، لقد أدرك أساتذة العلوم السياسية في
الغرب محدودية هذه الدعوة وقصورها^(٥٩).

إن النزعة الرومانسية لا تعنى تغييباً للوعي أو انسلاخاً من الواقع، بل إنها تنطلق
بأصحابها الى أفق أرحب ومناخ أنقى؛ ليصفو الفكر وتتضح الرؤية ويقوى الأمل وترسم
الخطوات نحو ترجمة الحلم (المعيش) الى واقع معيش أيضاً. ولا ينكر القارئ لتاريخ
الحضارة الإنسانية أن أكبر انجازاتها - في كل جوانبها - بدأت خيالاً/أفكاراً/أحلاماً
بما هو أفضل، وتوقفاً اليه وتعلقاً به، ثم عملاً من أجله^(٦٠).

لقد كون الفلاسفة والمؤرخون وجهات نظر عديدة، فيما يتعلق بالصلات بين الفكر والحياة،

وفيما يتعلق بدور (الأفكار) في صناعة (السياسات). وإذا كانوا قد غالوا قديماً في الحديث عن دور الأفراد في توجيه مصير الأمم، ففي العهود الحديثة هناك إدراك متزايد لتأثير القوى الاجتماعية الجماعية، وهو ما يعني الاعتراف بتأثر الانفعالات/العواطف/ والمصالح معاً. وقد أثبت علماء الاجتماع الحديثون أن كلاً من (برامج الأحزاب) و(نظريات كبار المفكرين) تتحدد - إلى درجة كبيرة - ببيئتها الاجتماعية، وبالأوضاع التاريخية الخاصة بها. بيد أن القوى العقلانية واللاعقلانية - الوجدانية - متشابكة، كقاعدة عامة، بحيث لا يكاد يمكن فصلهما. إن (العالم) يحاول أن يضع الحقيقة فوق أعز مثله العليا ومصالحه الجوهرية، ولكنه لا ينجح - تماماً ودائماً - في القضاء على التحيز. و(الداعية/المفكر) يستخدم الفكر والمعرفة كأدوات للدفاع عن أهدافه المتصورة. ونوع تفكيره يُسمى عادة (أيديولوجية) لتمييزه عن التفكير العلمي غير المتحيز. وفي حالات كثيرة لا يكون الفرق إلا في الدرجة، ويصعب تحديد الحد الفاصل^(٦١).

كما أن النظرة المتفائلة للمستقبل، والتي تُعد خاصية أو ملمحاً شعورياً وجدانياً فريداً لدى بعض الأفراد دون غيرهم، هي - أيضاً - مكون أساسي في الفكرة الرومانسية، التي يتمتع بها هؤلاء. بيد أن هذه التفاؤلية ليست مقصورة على (الشعراء) الرومانسيين فحسب، بل كثيراً ما يتحدث عنها ويستند إليها كبار القادة والزعماء (الرومانسيين) الحالمين بمستقبل أفضل لشعوبهم، والحالمين بنهضة أمتهم ثم وحدتها.

وبرغم جملة التحديات التي تواجه الوطن العربي في القرن الحادي والعشرين، وبرغم أن استشراف مستقبل الوطن العربي يشير إلى مزيد من التشرذم والانقسامات والتبعية للخارج من ناحية، وبرغم أن سيناريو تقسيم الدول العربية إلى دويلات وكنتونات سياسية هو سيناريو يؤرق دعاة القومية العربية، فإن الطموح في الانتقال إلى سيناريو أكثر تفاؤلاً لم يغيب، مع إدراك المتعلقين بهذا السيناريو أنه يتطلب إحداث نقلة نوعية على صعيد أنظمة الحكم؛ لتصبح نظاماً ديموقراطية تدين في تبعيتها للشعب، وتقوم على مبادئ الكفاءة والشفافية وسيادة القانون^(٦٢). وها هي تلك النقطة قد حدثت ولو بشكل جزئي، بعد انتفاضات/ثورات الربيع العربي، وبات من الممكن توظيفها والبناء عليها، بعد تجاوز التعثر الذي تشهده مراحل التحول الديموقراطي في بلدان تلك الانتفاضات/الثورات.

أخيراً، فالوحدة العربية - شأنها شأن المشاريع التاريخية الكبرى - بحاجة إلى حاضن قوي لها، يملك القدرة على صيانتها، وبحاجة إلى أن يكون قيامها تعبيراً عن سيروية تاريخية. بمعنى أنه لا يكفي أن يكون الحلم عاصفاً، والحضور قوياً لفكرة الوحدة في الضمير الجمعي للأمة، من دون توفير مستلزمات القوة، بأبعادها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ففي تجربة الوحدة بين مصر وسوريا كان هناك غياب لعاملين أساسيين في تحقيقها: الأول هو أنها لم تكن حاصل سيروية تاريخية، ولم تأت استجابة لتراكم نضالي

(٦١) فردريك هرتز، م. س، ص ص ٣٢٢ - ٣٢٣.

(٦٢) حسن حمدان العلكيم، "التحديات التي تواجه الوطن العربي في القرن الحادي والعشرين:دراسة استشرافية، المجلة العربية للعلوم السياسية، العدد ١٩ (بيروت: ٢٠٠٨)، ص ص ٧٥ - ١٠٨.

و: جمال زهران، "مراجعة لكتاب: أحمد إبراهيم محمود (وأخرون)، حال الأمة العربية ٢٠٠٦ - ٢٠٠٧: أزمنة الداخل وتحديات الخارج"، المجلة العربية للعلوم السياسية، العدد ١٨ (بيروت: ٢٠٠٨)، ص ص ١٧٩-١٨٢.

منظم متجه نحوها، والثاني هو غياب الحاضن الاجتماعي القادر - بقوة ثقله الاقتصادي والسياسي - على التأثير في معادلة التوازن لمصلحة مشروع الوحدة ذاته (٦٣). ومنذ أن تحررت بلاد العرب من الاستعمار أو الوصاية أو الحماية التي رزحت تحت نيرها، كانت محاولات الوحدة العربية فاشلة؛ لأنها لم تراع إلا العاطفة وحدها في توجيهها نحو تحقيق هذه الوحدة، الأمر الذي يبرهن على ضرورة توفر كل من الأسباب الموضوعية - وفق المنهجية العلمية - والأسباب الوجدانية أي النزعة الرومانسية، وتكاملية توظيف هذين المدخلين لتحقيق الوحدة العربية. إلى ذلك، يجب ألا نغفل عن حقيقتين قاطعتين في هذا الشأن: تتعلق أولاهما بضرورة وجود الإرادة السياسية الراغبة في انجاز (الحلم/الطموح القومي بالوحدة). وتتعلق الثانية بضرورة إدراك أن تحقيق هذا الحلم/الطموح القومي بالوحدة قد أصبح ضرورة حياة للأمة العربية وبقاء النظام العربي.

فهل حان وقت استيعاب هاتين الحقيقتين ؟

لقد كتب وبحث الكثير من المفكرين العرب والمراكز المتخصصة في أمر الوحدة، وهناك الكثير من الأفكار والأدبيات لتحقيقها، ولكنها كلها لم تُترجم إلى خطط عملية قابلة للتحقيق؛ وذلك لعدم وجود إرادة سياسية للتخلي عن بعض الامتيازات القطرية لصالح الوحدة العربية التي طال انتظارها. كذلك، وفي ضوء التقرير - الذي أعده مركز دراسات الوحدة العربية؛ بعنوان: "استشراف مستقبل الوطن العربي"، والذي نُشر في شهر شباط/فبراير عام ٢٠١٠م - هناك سيناريوهات تنتظر الوطن العربي في الربع الأول من القرن الواحد والعشرين: "أول هذه السيناريوهات هو استمرار الحال الراهن وهو ما سيقود إلى الانهيار الكامل، وثانيهما: قيام صيغ تعاون إقليمي سرعان ما تنهار هي الأخرى إذا لم تتجه إلى الوحدة، وثالث تلك السيناريوهات: قيام وحدة اتحادية تضمن للعرب استقلالهم ونهضتهم، تحققها كتلة تاريخية من كل تيارات الأمة الرئيسية (قومية وإسلامية ويسارية عروبية وليبرالية وطنية)، تجتمع حول مشروع نهضوي عربي" (٦٤).

إن تأمل المخاطر المتوقعة إذا تحقق أحد السيناريوهين الأولين يملي علينا ضرورة بذل أقصى الجهد سعياً لتحقيق السيناريو الثالث؛ ليس لأنه يمثل الحلم/الطموح القومي العربي المأمول فحسب، بل لأنه أيضاً بات يمثل ضماناً بقاء وضرورة حياة لهذه الأمة. تخلص هذه الدراسة إلى ما يلي:

أولاً - تُعد (الوحدة العربية) فكرة مثالية كبرى ينبغي أن يسعى لتحقيقها أبناء الأمة العربية. كما ينبغي إدراك أن التسليم بوجود أيديولوجية (القومية العربية) أو (العروبة) - بما يشيران إليه من معاني العقائدية والفعالية في آن - يوجب ضرورة الجد في الدعوة إلى هذه الأيديولوجية والعمل من أجل تحقيقها في معناها الأكمل أو هيئتها المثلى: (الوحدة العربية).

(٦٣) يوسف مكي، "الوحدة واستعادة الحلم والوعي"، في

<http://>

www.arabrenewal.info/
o/2010-06-11-14-11-
19/20166(March 3,
2012)

(٦٤) أحمد بن محمد العامري، "الوحدة العربية..

حلم أمة"، في:

<http://>

[www.alroya.info/ar/
citizen-journalist/
citizen-journalist-
43349\(November 7,
2012\).](http://www.alroya.info/ar/citizen-journalist/citizen-journalist-43349(November 7, 2012).)

ثانيا - في سبيل تحقيق هذه الوحدة، تستطيع المنهجية العلمية - بأدواتها المختلفة - أن تضع أمام صانع القرار السياسي القومي كافة المؤشرات الإيجابية والسلبية المتعلقة بالواقع السياسي، والمعرفة بأهم معطياته، وهو ما يُوقِف متخذ القرار على مدى ملائمة هذه المعطيات لأن تكون قاعدة للانطلاق منها الى الأفق المرجو - تحقيق الوحدة - ومدى دفع / إعاقة هذه المعطيات لمسيرة الانطلاق تلك.

ثالثاً - كما تأثر الطابع القومي بالشعر والفن لدى الأمم الألمانية والبريطانية والفرنسية والإيطالية وغيرها، وكما كان للفكر الرومانسي إسهام رئيسي في بناء الأيديولوجيات القومية لتلك الأمم حتى أصبحت الغاية الأولى لخطط المفكرين الرومانسين لديهم هي تحقيق الاستقلال القومي وتحرير تلك الأمم وتوحيدها.. فإن الظاهرة نفسها لم تغب عن الأمة العربية، إذ كان ولا يزال للشعر والفن والنزعة الرومانسية دور في بلورة الحلم/الطموح القومي العربي الوجدوي. وتعد هذه (النزعة الرومانسية) بمثابة القاطرة أو نقطة الجذب التي تتعلق بها أو تسعى في الوصول إليها الجهود الوجدوية لأبناء الأمة.

رابعاً - لا غنى عن توظيف كل من (المنهجية العلمية) و(النزعة الرومانسية) معاً، لتحقيق الطموح القومي الكبير، أي (الوحدة العربية): فهذان المدخلان متكاملان، وليس متنافرين. وما يغيب عن أيهما من نقاط القوة يتوفر لدى الآخر. إن المنهج العلمي واقعي، ويستند في وصفه وتحليله للواقع السياسي الى أدوات منهجية محكمة، ويقدم قياسات ومؤشرات دقيقة، لكنه قد يكون مُحِبِطاً أو مُيَسِّساً، إذا كشف عن أوضاع متردية أو مؤشرات سلبية بدرجة ما، فتكون - حينئذ - (الفكرة/النزعة) الرومانسية المتفائلة/الحاملة هي المبددة لهذا اليأس أو الإحباط، والحافزة ضمن - أو في صدارة - عوامل أخرى على استمرار جهود تحقيق الحلم/الطموح القومي، أو - على الأقل - لتحفظه في وجدان أبناء الأمة وضمائهم، ولتحول دون موته أو تلاشيه.

خامساً - إن النزعة الرومانسية دائمة التوهج في قلوب أبناء الأمة وأذهانهم، ويمكنها أن تسهم - مرحلياً - في تشكيل العديد من الأحلام والطموحات القومية الأخرى. لعل في صدارة تلك الطموحات القومية، الحصول على مقعد دائم في مجلس الأمن الدولي، لمجموعة الدول العربية، وإنشاء سوق عربية مشتركة، وتوحيد نظم التعليم والقضاء في العالم العربي، وتنفيذ مشروع قومي لتعريب العلوم، وإعداد غطاء نووي عربي. وما الى ذلك.

سادساً - ضرورة القبول بالتدرج في تحقيق الطموح العربي الأكبر/ حلم الوحدة، وتجاوز مسألة (هيئة / شكل) التعاون في بدء مسيرة العمل المشترك، فالمهم أن يكون هناك بدء

للتحرك في هذا الاتجاه □